جامعة الدمام
UNIVERSITY OF DAMMAM

مقرر: نظريّة المعرفة

د. جمال نور الدين إدريس

إمكان المعرفة:

- **الإمكان**: عدم اقتضاء الشيء الوجود والعدم بحيث يكون في حالة بين الامتناع والوجوب.
- والبحث في إمكان المعرفة يعني دراسة إجابة السؤال التالي : هل في وسع الإنسان أن يعرف شيئاً ؟.
- **انقسم الناس حيال هذه المسألة فريقين**:
- 1- فريق يقول بإمكانها وهم الاعتقاديون / أتباع مذهب التيقن.
- 2- وفريق ينكر إمكانها وهم أتباع مذهب الشك.

- **مذاهب الشك:**
- **الشك في اللغة**: ضد اليقين.
- **وفي الاصطلاح**: يقول الجرجاني : هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك.
- **أقسام الشك**: ينقسم الشك المتعلق بالمعرفة إلى قسمين:
- 1- شك مطلق.
- 2- شك منهجي.

- **الشك المطلق أو الحقيقي**: في القرن الخامس ق.م سيطرت على الفكر اليوناني حالة من الشك في الوجود والمعرفة صورها الفيلسوف السوفسطائي(جورجياس) بقوله:" لا يُوجد شئ وإذا وُجد شئ فالإنسان قاصر عن إدراكه ، وإذا فرضنا أن الإنسان أدركه ؛ فلن يستطيع أن يبلغه لغيره ".
- ولكن أول مذهب فلسفي بُني على الشك التام : مذهب
- (بيرون ت 275 ق.م) الذي يقول: " يجب أن لا نثق في الحس ، ولا في العقل ، وأن نبقى من غير رأي ويجب أن ننفي ونثبت معاً ، أو لا ننفي ولا نثبت"

- وجاء السوفسطائيون فردوا المعرفة إلى الحس وحده ؛ حيث انتهوا إلى القول بأن الفكر لا يقع على شيء ثابت ومن ثم امتنع إصدار الأحكام ؛ وبطل القول بوجود حقيقة مطلقة.
- ونَحَت الأكاديمية الجديدة منحى السوفسطائية فأنكرت وجود مقياس ثابت للحقائق ، وقالت بمبدأ الترجيح والاحتمال الذي يقوم على النظر فيما يقال في الموضوع تأييداً أو اعتراضاً ثم يؤثر الترجيح ولا يتجاوزه على اليقين.

- حجج الشكاك: أورد الشكاك عدداً من الحجج لتدعيم موقفهم بعضها يتعلق بالذات وبعضها **بالموضوع وبعضها بهما معاً من أبرزها**:
- 1- خداع الحواس والعقل .
- 2-اختلاف الإدراك بحسب حالة الموضوع المُدرَك – التي هو عليها حين الإدراك.
- 3- تناقض الناس في آرائهم.
- 4- الجهل بالأشياء.

- وحجج الشكاك هذه لم يعد لها وزن في الإنكار المطلق لقدرة الإنسانية على المعرفة بل لم يعد لمذهب الشك المطلق بصورته الساذجة وجود في العصر الحاضر وإن وُجد أراد من الشكاك قلّ أن يخلو منهم عصر ولعل من أشهرهم في العصر الحديث الفيلسوف الإنجليزي (مونتاني ت1553م) الذي ترك البحث في العالم الخارجي لظنيته وراح يلتمس اليقين في نفسه فانتهى إلى الشك.

- والشك المطبق وإن انتهى فإن الشك ذاته لم ينته فتحول من شك في كل مصادر المعرفة إلى شك في بعض مصادرها كشك العقليين في الحس وشك الحسيين في العقل ، أو يمثل الشك مرحلة في حياة المفكر يفضي منه إلى المعرفة وهو الشك المنهجي.
- **الشك المنهجي**: هو وسيلة يهدف منها الوصول إلى المعرفة الصادقة حيث يقوم الباحث بتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات وأضاليل ليتمكن من البدء بدراسة موضوعه غير متأثر بأي عامل وكأنه لا يعلم عنه شيء.

- وقد أكد كثير من رجال الفلسفة الحديثة هذا الشك واعتبروه ضرورياً لكل معرفة سواء في ذلك:
- **العقليون** : وعلى رأسهم رينيه ديكارت .
- **أو التجريبيون: من أمثال** : ديفيد هيوم الذي سماه بالشك العلمي وقرر أن الفلسفة لا بد أن تقوم على أسس شكية.
- وهذا الشك ليس وليد العصور الحديثة فقد أوصى أرسطو قديماً بمزاولة هذا النوع من الشك واعتبر أن المعرفة التي تعقب الشك أدنى إلى الصواب.

- **مذهب التيقن والاعتقاد:**
- **التّيقن واليقين في اللُّغة:** العلم وزوال الشكّ
- **وفي الاصطلاح:** نقيض الشكّ وهو اعتقاد الشيء بأنّه كذا مع الاعتقاد بأنّه لا يكون إلا كذا مطابقاً للواقع.
- **والاعتقاد:** هو الحكم الذهني الجازم القابل للتشكيك إذا وضع مقابلاً للعلم ، ولكنه يطلق تارة على اليقين ، وتارة على العلم ، وتارة على التصديق مطلقاً.

- **ومذهب التيقن** : في المعرفة هو الذي يقول بوجود الأشياء وجوداً حقيقياً وبقدرة الإنسان على معرفتها . وقد ظهر هذا المذهب في صورتين:
- الأولى: الصورة المشاهدة عند كل الناس من تصديقهم لما يرون ويسمعون وقطعهم بالأحكام على الأشياء دون نقد وتمحيص وكان هذا أسلوب الفلسفة القديمة في تفسير العالم والوجود.
- الثانية: صورته مذهباً فلسفياً ذا مواقف محددة ولم تظهر هذه الصورة إلا بعد ظهور الشك فنزع

أصحابه إلى الدفاع عن الحقيقة كما فعل سقراط مع السوفسطائيين الذين تلاعبوا بالألفاظ حينما قام بوضع الحدود الكلية عن طريق الاستقراء ثم توجيه العلم إلى اكتشاف الماهيات المختفية وراء أعراضها المحسوسة.

- وحينما جاء أرسطو تصدى لمناقشة حجج الشكاك وإبطالها ، وأزال سوء الفهم للمبادئ العقلية التي اضطربوا فيها كاجتماع الضدين ، فبيّن أنّ الضدين قد

- يجتمعان ولكن من وجهتين مختلفتين ؛ وبهذه الجهود أثبت أرسطو إمكان قيام المعرفة ، واعتبر الماهية أو الوجود في ذاته موضوعها والحواس تدرك النسبي وتترك إدراك المطلق للعقل.
- وفي العصر الحديث جاء ديكارت: فبدأ شاكاً وانتهى إلى المعرفة وقرر أن الشك المطلق إنما ينتج من الوقوف في منتصف الطريق دون الوصول إلى آخره

- **موقف الإسلام من مسألة إمكان المعرفة:**
- أولاً: وجود الأشياء: قرر الإسلام أن للأشياء وجوداً عينياً مستقلاً عن الذهن –مخالفاً مذهب الشك- أدركه الإنسان أم عجز عن إدراكه ، ومن ثم فإدراك الإنسان للأشياء لا يقتضي وجودها وعدمه لا يقتضي عدمها.
- **وتنقسم الأشياء بالنسبة للإنسان إلى نوعين:**
- موجودات عالم الطبيعة ويسميها القرآن:(عالم الشهادة).
- وموجودات عالم ما وراء الطبيعة وفي القرآن(عالم الغيب).

- وهذه المسألة لم يشك فيها أحد من المسلمين حتى الذين تأثروا بالتراث اليوناني لم يشكوا في ذلك ؛ ولهذا كان تناول العلماء لها بذكر المذاهب فيها والرد عليها وقد قسم بعضهم أتباع هذا الاتجاه الشكي إلى ثلاثة أقسام:
- **1- العِناديّة** : منكروا حقائق الأشياء الذين يعتبرونها أوهاماً وضلالات.
- **2- اللاَ أَدْرِيّة** : الذين ارتابوا هل ما يدركون حقيقة أو هي أوهام.

- **3- العِنْدِيّة:** الذين يرون حقائق الأشياء تابعة للاعتقادات فحقيقة هذا الشيء كما هي عندك صحيحة وكما هي عندي صحيحة أيضاً حتى ولو اختلفت نظراتنا إليها أي: لا يوجد حقيقة مستقلة عن الفكر فليس ثمة سوى الأفكار.
- ولم تخل البيئة الإسلامية –خلال عصورها- من أفراد نهجوا نهج الشكّ والارتياب كأبي العلاء المعري الذي انتهى به شكه إلى اليأس والقنوط.

- **ثانياً: معرفة الأشياء**: منهج الإسلام في هذا: أنّ بإمكان الإنسان معرفة كثير من الأشياء إذا ما سلك السبل المؤدية إلى المعرفة ، وقد جاءت الآيات القرآنيّة تحث الإنسان على التفكر في الكون من أجل:
- 1- معرفة الأشياء المبثوثة في الكون والاستفادة منها.
- 2- استشعار عظمة الله الذي خلقها.
- ولو لم تكن المعرفة ممكنة لكان الأمر بالنّظر والتّدبر لغواً باطلاً والله منزه عن ذلك.

- ولهذا كانت معرفة الموجودات في الإسلام ممكنة متهيئة وعلى هذا تواطأ العلماء:
- قال نجم الدين النسفي: " حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق ، خلافاً للسوفسطائية"
- وهذا الإمكان للمعرفة يشمل موجودات عالم الغيب وموجودات عالم الشهادة
- ثالثاً: الشك المنهجي في ضوء الإسلام: ثار حول هذا الشك –في الفكر الإسلامي- نزاع وبخاصة فيما يتعلق

- بمعرفة الله وهل من الضروري أن تنطلق من شك أو لا؟
- والشك المنهجي تجربة عاشها أناس واقعاً حياً من أشهرهم : الغزالي، وأوغسطين وديكارت وهيجل.
- وقد دعا بعضهم[الغزالي] إلى ممارستها لكل طالب حقيقة: " إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال".

- **مجالات الشك:**
- العلوم النظرية: هي أول ما يتوجه إليها الشك فديكارت يوضح منهج شكه بأنّه: (قرر أن يشك في كل ما سبق له التسليم به من آراء وأن يهدم كل ما سبق له أن دان به من معتقدات وأن يشرع في اختيار معارفه....).
- العلوم الضرورية والمبادئ القبلية: فالغزالي بعد أن شك في الحواس التي تخدع الإنسان – حيث يرى الظل واقفاً وهو في الحقيقة متحرك- تطور به الأمر إلى الشك في الضروريات العقلية ؛ وأيد ذلك بالأحلام

- التي يراها الإنسان حقيقة ثابتة ثم يتبين باليقظة كذبها ؛ وعليها يقاس ما في اليقظة فلعل هنالك حالة تكون فيها حالتنا هذه كحالة النوم بالنسبة لليقظة ...)
- كذلك ديكارت بعد أن شك في الحواس والعقل وأمعن في الشك إلى حد أن افترض أن شيطاناً ماكراً يعبث به وألح عليه الشك حتى شك في أنه يشك.
- **الموقف السليم في أمر الشك في الضروريات :**

- إنّ الموقف السليم الذي ينسجم مع قواعد الإسلام هو القائم على أن الله خلق الإنسان مجبولاً على مبادئ فطرية ، لا يمكن أن تزول من عقل الإنسان ؛ لأن قيمة العقل بصفته مصدراً للمعرفة إنما يتم بوجودها ؛ ولهذا عرّف كثير من العلماء العقل بأنه:(العلوم الضرورية التي تقع ابتداء وتعم العقلاء).
- وزوال هذه المبادئ بالكلية يعني زوال العقل وسقوط التكليف المناط به وافتقاد القدرة على العلم والمعرفة؛

- ولهذا فإن أشهر نموذجين لهذا الشك الغزالي وديكارت عادا في نهاية شكهما إلا بناء المعرفة عليها.
- **فالغزالي**: يقول بعد فترة شكه:(حتى شفى الله – تعالى – من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمر يقين).
- **وديكارت**: الذي انتهى إلى الشك في أنه يشك عاد فبنى فلسفته على:(أنه لا يشك في أنه يشك فهو يفكر وما دام يفكر فهو إذن موجود (أنا أفكر فأنا إذن موجود).

- فالمبادئ القبلية هي الأساس لقيام المعرفة العلمية ومن ثم فلا مناص لمَن شك فيها أو اصطنع ذلك من أحد خيارين:
- 1- البقاء في الشك المطبق فيصبح من أصحاب الشك المطلق.
- 2- وإما الاعتراف بتلك المبادئ بصفتها الأساس في العقل البشري الذي تقوم عليه المعرفة.